فن الترجمة

إصطلاحاً هو نقل العلوم والمعارف من لغة إلى لغة أخرى. الترجمة قديمة قدم الوجود البشري على هيئة أصواتٍ تُعبر عن معانٍ تحولت بعدها إلى إشاراتٍ ثم أُطرت برموزٍ عندما أدرك مجتمع ما وجود مجتمعاتٍ أخرى تتكلم غير لغته (تتفاهم بغير الأصوات التي ينطقها).

أما الترجمة الوظيفية فقد ظهرت في محيط التجارة وفي صحبة الجيوش المحاربة عند إجراء مفاوضاتٍ وعقد معاهداتٍ وتبادلٍ للأسرى ثم امتد نطاقها إلى حقول الثقافة كالعلم والفن والأدب والفلسفة وغيرها وهكذا أصبحنا أمام الترجمة في إطارها العلمي الذي يخضع لأصول وقواعد منهجية وهذا النوع هو الأجدر بالمصطلح عند ذكر كلمة "الترجمة" إذ تصبح الترجمة من أهم السبل لتبادل الخبرات والثقافات بين الأمم وبها تنظر الأمم إلى الكون الذي تعيش فيه بمفاهيم متعددة بدل مفهوم أحادي فتكون الرؤية أوضح والآفاق مشرعة على مدياتها.

إن التطور الحاصل في الترجمة هو إيحاءات لها أصول في فكر الإنسان حسب مراحل نموه وتطوره وارتقائه. ومن المتعارف عليه أن على المترجم أن يكون أميناً في تعامله مع النص الأصلي والنص المنقول إليه علماً ومهارة وفناً.

إن وجود نظرية لتحليل العمليات التي تمر بها الترجمة وتفسيرها باستخدام المنطق العلمي أمر يساعد على إدراكٍ تحليلي للذات البشرية. هنا يدق ناقوس يتساءل: هل حقاً تقتصر الترجمة بشموليتها على معنى النقل من لغة لأخرى؟ وإذا كانت الترجمة فن معرفي، أفلا نجد لهذا الفن امتداداً في فكر الإنسان بكل ما يحمله في داخله من أحلام وخواطر ومشاعر؟ وكيف نواجه كل هذا ونخرج منه أجمل ما فيه؟ ألا يعني هذا أن هناك عقداً يشترط الأمانة بيننا وبين الحياة في شموليتها وبيننا وبين مفردات الحياة في تفاصيلها؟ ترجمة مشاعرنا وخواطرنا إلى سلوكيات وردود أفعال تحتاج منا إلى رؤية وثقافة وفلسفة وقبل كل شيء تحتاج إلى زخم هائل من الحب، فالحب هو إرادة الحياة، أن تحب نفسك وتحب الحياة وتنقذ الأثنين معاً في خضم الصراع الأبدي، هذا الإشكال يحتاج إلى وقفة مع النفس، أن نواجهها، نسألها ماذا تريد، هل ترغب في الانطواء والإنكفاء في دوامة نعي القدر والظروف والحكومات الخائبة أو أن تتمرد على كل هذا وترفضة ببدائل تبدأ من جديد؟ إن ما يأخذ بيد الإنسان هو تفاؤله ورغبته في صنع معجزة تخرجه من حلقات التشاؤم المنغلقة على استقطاب ما

هو موجود في المحيط الكوني من سلبيات وهي معركة ذكرها رسولنا الكريم بأنها أشق أنواع الجهاد، وفي نفس المعنى يأتي الذكر الحكيم بآية حكيمة "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"، وهنا أذكر كلمة لبروانغ "عندما تبدأ المعركة بين المرء ونفسه يصبح شخصاً يستحق الذكر".

إذا اتفقنا على أن الترجمة فن وأن لكل منا طريقته في ترجمة مفردات حياته التي يتفاعل من خلالها مع محيطه فإن هذا التعريف يشمل كل جوانب الحياة ومعطياتها إيجابية كانت أم سلبية. ترى كم يضيع الوقت ونحن نترجمه ضياعاً بين مفردات الكهرباء والغاز والنفط والأختناقات المرورية وخيبات الحكومة المتواترة ورغم أن هذه كلها تشكل عصباً في حياتنا اليومية إلا أننا لو كنا نتفاعل معها في ظرف طبيعي لأخذت مدياتها المفترضة بساعات محدودة نتفرغ بعدها لما يغني الروح والفكر مترجمين الوقت لموسيقى أو شعر أو رياضة أو عمل خير. تخنقني مثل معظم من حولي متطلبات ملحة تترجم الزمن بلا محدوديته إلى تذمر وعنت وإرهاق وكبت وعمى لا يخرج عن إطر ترديد وسرد قائمة لا تنتهي من صنوف المعاناة دون الوصول إلى حلول وبدائل. فالحل، حسبما ترسخ في ذهني ووجداني جراء تربية وتعويد خاطىء، يرتبط بالحكومات التي نعتمد عليها في تقديم كل الخدمات لنا جاهلين بالدور المؤسساتي للشعب نفسه في سد هذه الأحتياجات فنزاهة الحكومة وجدارتها يحولان تيارات الإحباط إلى ترجمات إبداع، يعني أن توفير مستلزمات العيش الضرورية ومكملاتها من ضرورات الأبداع والإرتقاء يقع على عاتق الحكومة أما إذا كانت الحكومة غير قادرة على توفير أي منها فتلك هي الطامة الكبرى وهو النكوص والتراجع والدخول في شرنقة اللاجدوى والضياع والحيرة ما بين الممكن وغير الممكن في طريق مسدود. في مثل هذا الخراب، كيف تترجم يومك، كيف تترجم إنسانيتك وصلتك بالله وبالآخرين؟ لم أخرج بعد عن ميدان الترجمة فأنا في صميمها أعالج حركة الفرد بين خالقه ووقته كيف يترجمها إذا كان محاصراً بين نفس مستلمة وواقع خربٍ يدفع إلى التخريف؟

منذ فترة وجيزة بدأت نقاط التفتيش بتجميل صباتها الكونكريتية الخرساء المتغطرسة بأصص زهور تمد أعناقها الرقيقة الملتوية بخجل وكأنها مصابة بفقر الدم كأطفال بلادي، تطل علينا تخفف من وطأة اللون الرمادي الأجرد. أول ما رأيتها دهشت، تحول قرفي من الحاجز والتأخير وضياع الوقت وهاجس الهلع من انفجار قريب، وتُرجم بدمعة لم أستطع دفعها، أليست هذه ترجمة وبأسمى معانيها؟ في المحاضرة

حاولت أن أنقل إلى طلابي هذا الإحساس علّهم ينتبهون إلى جهد الجندي المبذول في خلق نوع من الألفة بينه في ضيق محيطه وبين الشعب المحاصر فإذا بأحدهم يعلق متهكماً: أتبكين من مجرد رؤية زهرة؟ صدمت، تذكرت قول طاغور "الأعمى حر بأن يرى النور لكن... أنى له أن يراه".

د. فوز النعيمي